في التوازن الجديد للقوى: شعبية التنظيمات المسلحة الفلسطينية واللبنانية

الطاهر الأسود*

■ إذا كان للمواجهات الدائرة الآن في لبنان وفلسطين من أهمية فهي بالتأكيد ما توفره من تصعيد كاف لتكشف بشكل غير مسبوق الطبيعة الجديدة لتوازن القوى في المنطقة وتحديدا في المواجهة بين القوى العربية والاسلامية المعنية والطرفين الاسرائيلي والأمريكي. وليس الجديد هنا بالضرورة ما أشار اليه السيد نصر الله أو رئيس الوزراء الاسرائيلي وبقية أعضاء «المكتب الأمني الموسع» حول «تغيير قواعد اللعبة». ما هو جديد لم يطرأ هذه الأسابيع أو الأيام الأخيرة. ما هو جديد كان يتشكل منذ سنوات عديدة والآن ليس الوقت إلا لاكتشافه. وسيأخذ التعرف على ميزان القوى الجديد وقتا طويلا على الأرجح حتى تأخذ باعتباراته القوى المعنية وربما تعدل على أساسه تكتيكاتها وربما حتى استراتيجياتها. ولكن هذا الجديد سيكون ذا تأثيرات عميقة وربما حتى غير متوقعة أراد هذا البعض التعديل أم لم يرد.

لنفهم التوازن الجديد من الممكن البدء باستذكار نصيحة قدمها منذ فترة طويلة أحد حكماء السياسة والحرب الأكثر تأثيرا في القرن الماضي للمعنيين بالصراع في المنطقة. كان ذلك في بكين في السنين الأخيرة من حياة الزعيم الصيني ماو تسي تونغ عندما التقى عددا من قيادات المقاومة الفلسطينية الناشئة. عندما سأل أعضاء الوفد الفلسطيني ما الذي يمكن أن ينصحهم به الزعيم الصيني في خصوص الطابع العسكري للصراع حدد لهم الأخير مجموعة من النقاط كان أهمها التخلي عن الجيوش النظامية والتركيز على خلق جيش شعبي مترسخ في المناطق المحتلة قادر على خوض مواجهات طويلة بأسلوب حرب العصابات. وفي الحقيقة عندما نرغب أن نلخص طبيعة الصراع العسكري على الجبهات الاسرائيلية في الوقت الراهن فإننا لن نجد أفضل من الوصفة الماوية أعلاه.

ليس هناك شك أن الوضع الراهن لم يتحقق لأن القادة الفلسطينيين أخذوا بنصيحة الزعيم الصيني. إنما تحقق لأنه كان الخيار الضروري الوحيد المتبقي في الصراع ضد الاحتلال الاسرائيلي. كان الوضع الراهن، في الأساس، الوضع غير المتوقع وغير المنتظر، وفي النهاية، الوضع الذي لا يستطيع أي كان في المجال العربي أن يزعم أنه خطط له بعناية. وهنا لا أتحدث عن أسلوب حرب العصابات، فذلك كان بمثابة التكتيك العسكري الثابت منذ نشوء المقاومة الفلسطينية، وهو تكتيك تم تبنيه بكل حرص وحتى في إطار كثير من الجعجعة الايديولوجية والتي جعلت من الحديث عن حرب العصابات أحيانا أكثر حدوثا وترددا من تنفيذها. ما كان غير متوقع وعفوي بشكل بالغ هو «خلق جيوش شعبية مترسخة في المناطق المحتلة».

ما كان موجودا حتى ثمانينات القرن الماضي تحديدا هو سلسلة من الجيوش النظامية العربية المستندة لجدار من الأنظمة القومية (الى هذه الدرجة أو تلك) والتي كانت تقود وتحدد متى يمكن أو لا يمكن أن تسخن أو تتفجر جبهات المواجهة. على أطراف وفي ثنايا وبفضل هذه الجيوش النظامية كانت تنشط تنظيمات حرب العصابات. غير أنها لم تكن تفعل ذلك إلا في الظل النظامي للجيش الرسمي وقيوده غير المحبذة بالنسبة لأي جيش شعبي، والأهم من ذلك، كانت تلك التنظيمات خارج المناطق المحتلة التي تسعى لتحريرها. كان الأمر دائما، حتى ثمانينات القرن الماضي، مجموعة من الجيوش النظامية التي تعرفت بعد الكثير من الألم و «الوهم المتبدد» أنها لا تستطيع من حيث القدرة العسكرية إلا «تحريك» الصراع لا غير.

بعد الكثير من التواكل غير الموفق على «الصديق السوفييتي» وعدم توفيق برامج التنمية بما في ذلك «التصنيع العسكري» لم يعد من الممكن التغافل عن استحالة تحقيق «التوازن الاستراتيجي». على ذلك الأساس توصل البعض الى الاستنتاج العقلاني (غير الموفق أيضا بقدر عدم توفيق استراتيجيا التعويل على «التوازن الاستراتيجي» القاضي بضرورة السلام وفق الشروط الحالية. ضمن هذه الاستراتيجيا النظامية عسكريا وسياسيا) كان على تنظيمات حرب العصابات، والتي كانت تمارس خطف الطائرات أحيانا أكثر من المواجهة المباشرة مع الاحتلال، التصرف كـ«جيوش شعبية» في قواعد معادية أو غير متحمسة على الأغلب على احتضانها. وهكذا، شيئا فشيئا، كان من الممكن استئصالها وتكفل بذلك أحيانا النظام العربي الرسمي وحده (أيلول الأسود وطرد التنظيمات الفلسطينية المسلحة من الأردن) أو نهج تكافل فيه الأخير مع الآلة الاسرائيلية الظافرة بشكل مباشر (طرد غالبية التنظيمات الفلسطينية من لبنان).

قام النظام العربي الرسمي سواء المعني بمواجهة جدية أو غير المعني بذلك بتأثيث بطيء ولكن ناجح للتركيبة الجديدة القاضية أساسا بنزع الغطاء العربي عن «الصراع العربي الاسرائيلي». وهكذا تم منح منظمة التحرير الفلسطينية «وحدها» حق الافتاء والحل والربط في الموضوع الفلسطيني وبدأت سلسلة من اتفاقات الصلح المنفردة التي أعلنت رسميا «فشل الخيار العسكري» ولكن الأهم من ذلك أعلنت فشل استراتيجيتها النظامية. في الوقت نفسه، وبالتوازي مع اهتراء الغطاء العربي الرسمي، تبددت بشكل متسارع التنظيمات «الشعبية» المسلحة، والتي لم تكن، إلا لوجودها في قواعد أخرى خارج مناطقها المحتلة وإلا لأنها تلقى دعما من أحد الأطراف الرسمية المعنية.

لم يكن لأي من هذه التنظيمات «الشعبية» أرادت ذلك أم لم ترد أن تكون شعبية ما دامت بؤرتها الشعبية المعنية والمؤهلة قبل غيرها للمواجهة المباشرة والموجعة مع الاحتلال غير منخرطة بشكل كامل وجدي في العمل العسكري: يتعلق ذلك بجمهور المناطق المحتلة. هنا من الضروري استحضار أمر أساسي: لقد بقي جمهور الأراضي المحتلة غائبا عن الفعل المسلح وبالأساس متفرجا من بعيد كأنه يشاهد صراعا في قارة أخرى. بقي هذا الوضع ما يقارب الأربعين عاما. وفي الواقع كان ذلك، أي غياب الجمهور القابع تحت الاحتلال عن العمل المسلح ورهن التنظيمات «الشعبية» بأنظمة لا تملك نفسا طويلا، تحديدا نقطة الضعف الأساسية في استراتيجيا الصراع ضد الاحتلال الاسرائيلي. وكان ذلك، في المقابل، نقطة القوة الأساسية للاسرائيليين. لم يكن على الأخيرين إلا الاستمرار في القيام بكل ما يمكن عمله لتذكير الأطراف الرسمية العربية باستحالة تحقيق «التوازن الاستراتيجي» ومن ثمة بـ«الفشل المحتوم» للخيار العسكري، لكي يتم طرد وتهميش الأطراف الفلسطينية المسلحة. بمعنى آخر، لم تكن التنظيمات «الشعبية» تسبح في مائها.

سواء صدم ذلك البعض أم لم يصدم فإن الحقيقة الماثلة أمامنا الآن لا يمكن إنكارها: كان تحول الصراع ضد الاحتلال الاسرائيلي من صراع تقوده جيوش نظامية عربية ومجموعات غير نظامية من خاطفي الطائرات الى صراع أطراف راسخة في قطريتها من حيث ثقلها الشعبي ومجال المواجهة هو الطريق الأمثل، في النهاية، لجعل الاحتلال غير محتمل للاسرائيليين أنفسهم، ومن ثمة تحقق الشرط الأساسي للتحرير. حصل هذا التحول على مدى الثمانينات. أولا، ومع نشوء احتلال جديد في لبنان سنة 1982، أصبح من الممكن وقتها فقط نشوء جيش شعبي حقيقي على الأرض اللبنانية جعل ما تبقى من التنظيمات «الشعبية» الفلسطينية الضيفة في لبنان مجرد امتداد لوجستي للصراع العسكري. هكذا، تطور حزب الله، بعد تراجع بقية التنظيمات اللبنانية التي شاركت في اندلاع الحرب اللبنانية على الاحتلال، وأصبح نموذجا من حيث التركيبة والأسلوب والعلاقة بمحيطه الشعبي والقطري للجيش الشعبي الراسخ في أرضه المحتلة والقادر واقعيا على انهاء الاحتلال.

بعد سنوات قليلة من اجتياح بيروت اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى لتعلن معها نشأة تنظيمات وأطر محلية من داخل المناطق الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي لأول مرة منذ عشرات السنوات وتظهر معها حركتا حماس والجهاد الاسلامي. وحتى حركة فتح كان عليها المرور بمرجل جديد أعطى أهمية غير مسبوقة لقيادات الداخل لتصل عملية إعادة التركيب التي خلق تنظيم عسكري محلي يعوض «جيش التحرير الشعبي الفلسطيني» من خلال تأسيس «كتائب الأقصى» عبر الانتفاضة الثانية. وهكذا تمترس الفلسطينيون بمختلف فصائلهم في إطار محلي وقطري لا يعتمد بالأساس على أي طرف عربي إلا للمساندة الاعلامية. هكذا تكونت، أخيرا، تنظيمات شعبية فلسطينية مسلحة راسخة في مائها.

تم ذلك خاصة من خلال أطراف، للمفارقة، غير قطرية بالمرة في أجندتها الاستراتيجية. تم ذلك من قبل أطراف متعلقة بخارج القطر الى ما هو حتى عابر للرابطة القومية الى الرابطة الاسلامية. ليس هناك ما يمكن أن يخفي التحالفات شديدة الوثوق بين التنظيمات الشعبية المعنية وأنظمة رسمية عربية واسلامية. ولكن لم يعد من الممكن البتة استئصال هذه التظيمات الشعبية من خلال «الضغط» أو الاحتراب مع الأنظمة المعنية. تبدو الأطراف الاسرائيلية والأمريكية والأوروبية غير مدركة تحديدا لهذا الوضع الجديد أو على الأقل لتأثيراته العميقة لتوازن القوى في المنطقة وشروط تسييره.

الآن مثلا يركز جميع هؤلاء، ويا للمفارقة، على تلبيس الصراع طابعا قوميا واسلاميا، طالما تمت محاربته، ولكن هذه المرة مبالغ فيه وعن قصد. حيث لا يبدو أسهل، كما كانت العادة دوما، من أن يتم «تدمير» تنظيم مسلح ما دام موجودا إلا بفضل «الدعم الايراني والتسهيلات السورية». كما لا يوجد أسهل من «انهاء» حماس ما دامت محكومة وموجودة فقط عبر دمشق. الآن هناك رغبة اسرائيلية في التعلق بتقاليد ذلك الماضي الغابر المتمثلة في تنظيمات «شعبية» معلقة بين أيدي جيوش نظامية غير واثقة من نفسها. الآن هناك رغبة أمريكية في استعادة الجيوش النظامية القومية وترسيخ تلك الاسلامية فقط لتجد على من تضغط. يبحث هؤلاء بالتحديد على احياء من عملوا على تفكيكهم. غير أن ذلك جزء من الماضي البعيد. مجرد «وهم متبدد». الحقيقة غير المتوقعة للكثيرين عربيا ودوليا هي الآتية: بالرغم من قومية واسلامية حزب الله وحماس فإن قطريتهما، لبنانية الأول وفلسطينية الثاني، من حيث الثقل الشعبي ومجال المواجهة، تجعلهما متحررين بشكل غير مسبوق من إطار «الضغط» المعهود.

كل الذي تبقى من تفصيلات عسكرية جديدة من نوع الصواريخ والمعدات العسكرية عبر المعهودة التي تتوفر عليها التنظيمات الشعبية الفلسطينية واللبنانية في غاية الأهمية من حيث تقرير طبيعة الصراع. ولكنها جميعا لم يكن من الممكن أن تكون فعالة لولا توفر التنظيمات المعنية على مجال تسبح فيه بكل تحرر من تعقيدات النظام العربي الرسمي. وبالمناسبة حتى لو لم يبعث الايرانيون بصواريخ الرعد والزلزال لوجد حزب الله طريقه الى ما شابهها مثلما وجدت حماس طريقها الأكثر وعورة الى صواريخ القسام.

الأمر الذي لا يقل إثارة هو أن حتى «الضغط» المعتاد عبر الأنظمة الرسمية المعنية (سورية إيران) أصبح في ظل التوازنات الراهنة مجرد خطوة بعيدة المنال. ليس فقط بسبب المحدودية الفعلية لقدرات الأنظمة المعنية على الضغط، الأمر الذي لن يصدقه حتى أمد بعيد الطرفان الاسرائيلي والأمريكي، بل لأن الطرف الأخير تحديدا لن يسمح بأي مغامرات عسكرية تجاهها. الآن هناك معطى لم يكن الأمريكيون على استعداد حتى على تخيله في أشد كوابيسهم سوداوية في علاقة بأمن اسرائيل: لقد أصبح الأمريكيون منذ احتلال العراق جزءا من جغراسياسية النظام العربي الرسمي. وعوضا عما كان يحدث دائما، عندما يعكف الطرف الأمريكي على مراقبة تطور الأحداث من على سطح أساطيله البحرية في البحار المحيطة بالمنطقة ومن ثمة في مأمن من أي انفلاتات اقليمية، فإنه الآن مطوق في مستنقع عراقي شديد الحساسية لما يحدث الآن في لبنان، بل وأكثر لما يمكن أن يحدث في سورية وإيران. حيث لا يفصل بين الأمريكيين والانسحاب الفوري من العراق سوى انفلات الحليف الشيعي الموالي ايرانيا وحتى سوريا من تحت مظلة العملية السياسية وتوسيع رقعة المواجهة بالشكل الذي لن يكون ممكنا للجيش المنهك أساسا أن يواصل فيه «عملية البناء الديمقراطي» الجارية حاليا على قدم وساق.

هل ستحقق التنظيمات الشعبية اللبنانية والفلسطينية انتصارات تحرير فورية وخالية من هزائم موضعية أو اصطدامات محلية في شكل «حروب أهلية مصغرة»؟ لا أعتقد ذلك. هل ستحقق «تحريرا شاملا»؟ لا أعتقد ذلك. ستكون المعركة بالتأكيد طويلة وموجعة وشديدة التعرج. كما ستتجه بالضرورة الى نسق من المفاوضات الطويلة ولكن الجدية هذه المرة وليس على منوال «غزة أريحا» أو « 17 أيار» ويمكن أن تنتهي الى أرضية مؤتمر مدريد ولكن من دون المراوغة عبر اتفاقيات انتقالية كما حدث حتى الآن. ولكن هل ستهزم أو تتفكك هذه التنظيمات الشعبية قبل تحقيق أهدافها؟ أعتقد أن ذلك أمر مستحيل ولن يغير في الأمر شيء إذا أعلن «المكتب الأمني الموسع» للسيد أولمرت الرغبة في «تدميرها». في المقابل يقف السيد نصر الله وبخطاب يصعب على سامعه أن يفهم أن المتحدث راسخ في روابطه القومية والاسلامية حين يقول للباقي العربي الرسمي «فكوا عنا!». ولكن ذلك تحديدا عنوان نجاح التنظيمات الشعبية المواجهة للاحتلال.

* باحث تونسي يقيم في أمريكا الشمالية

الوعد الصادق.. نهاية أو إعلان موت النظام العربي الرسمي

كاظم الموسوي*

■ كشفت العملية البطولية لرجال المقاومة الإسلامية اللبنانية التي أطلق عليها اسم «الوعد الصادق» بشكل لا لبس فيه نهاية أو إعلان موت النظام العربي الرسمي، وفضحت على المكشوف حقائقه المستورة التي كان يتعكز عليها أو يحاول تطويل عمره فيها أو يتلطى بها أمام الشعوب العربية خصوصا والرأي العام الدولي عموما، وبينت إخفاقه في كل ذرائعه التي كان يتقدم بها رسميا.

منذ اكثر من خمسة عقود، منذ أول حرب عربية رسمية مع العدو الصهيوني وفشله في الانتصار فيها تذرع النظام الرسمي العربي بحجج الإعداد والاستعداد لشن حرب جديدة لاسترداد الحقوق المشروعة والأرض السليبة وإعادة سكانها الذين اجبروا على الهجرة واللجوء خارج ارض بلادهم، فتنقل من نكبة إلى نكسة إلى هزيمة والى موت سريري، ولم تشفع معه كل ممارساته الخائبة، والتي يعريها ميثاق جامعة الدول العربية، الذي وقع عليه، ومعاهداته التي لم تغير من انقسامات حكومات الدول الاعضاء عليها واصفرار أوراقها المركونة على رفوف غرف مقر الجامعة وعلو الغبار عليها إلى درجة القرف من تصفحها. ولم تستطع الانقلابات والتحولات في أجزاء منه من إعادة النظر فيها أو استعمالها لفظيا أو معنويا بل زادت في تعميق الهوة فيها حتى لم تعد من الناحية العملية رغبة العودة والتحدث عنها مطلوبة أو في احسن الأحوال مؤجلة، بل استخدمت هذه التحولات حججا لتوسيع الهوة وإبعاد الأهداف المنشودة منها، كما أعطت الأخيرة للعدو المتربص فرص التحرك الواسع في إجهاض النهوض والنجاح ومنحته قدرات أو انتباهات التمسك بخيوط اللعبة السياسية فيه، وتحويل هذه المتغيرات إلى خطوات في المشروع العام الذي لا يغير معادلات اللعبة السياسية لصالح الشعوب، اكثر مما كان المفروض منها، رغم ما فرض بالقوة أو بطبيعة المتغيرات نفسها. فجاءت العملية الأخيرة واسمها الوعد الصادق بالذات والحزب السياسي الذي قام بها إشارة واضحة لبدء صفحة أخرى لم يكن النظام العربي الرسمي منتظرا لها، وهو يشترك مع مخططات العدو الصهيو أمريكي في الإعداد لما بعدها، كما نرى ما يحصل الآن على الساحتين اللبنانية والفلسطينية وتداعياته في المستقبل القريب. استبقت العملية مشاريع النظام الرسمي العربي في مساومة العدو على بيع آخر ورقة توت يتغطى بها في فلسطين، وفاجأت أركانه بما لا يمكن مواجهته منفردا، والتعلق بردود الأفعال العفوية، أو بمغامرات لا يعرف منتهاها إزاء قوى شعبية فرضت مكانتها على الساحة التي تعيش عليها وعلى ساحة النضال التحرري العربي عموما. ولعل في صيحات المبايعة لقائد حزب الله اللبناني في تظاهرات الجماهير العربية والإسلامية من المغرب إلى اليمن إلى مصر إلى تركيا وإندونيسيا ابرز مؤشر على ذلك وأبهى دلالة على تماسك واحتياجات هذه الجماهير للقيادة الصحيحة والمجاهدة في سبيل مصالحها وأمنياتها وطموحاتها.

في برنامج تلفزيوني اخباري طلبت المذيعة من ضيفها، موظف من الأمانة العامة للجامعة العربية، وموظف أمريكي من وزارة الخارجية الأمريكية يتحدث العربية، الحديث عن اجتماع وزراء خارجية حكومات الجامعة العربية قبل يوم من انعقاده. فماذا كان رد المسؤول الأمريكي وكيف تطابق مع ما صدر لاحقا من بيانات رسمية عربية وهل فعلا تتدخل الولايات المتحدة الأمريكية حتى في إعداد صياغات البيانات الرسمية العربية؟ الإجابة على الأسئلة فيما يلي بشكل ملفت لا بد من الانتباه له ومعرفة تكراره في غيره من الشؤون والشجون، وهو في كل الأحوال ما يزيده إثباتا لما هو عليه الأمر واقعيا وتاريخيا. لقد رد بالشكل التالي: لا نريد شيئا من الاجتماع ولكن هم يعرفون ضرورة إدانة عمل المنظمة الإرهابية حزب الله بلبنان وإطلاق فوري لسراح الجنديين الأسيرين عندها، وكذلك عند حماس، والمشاركة الواسعة في الحملة ضد الإرهاب. وبعد انتهاء البرنامج الأخباري بساعة أو اقل نشرت نفس القناة خبرا عن مصدر رسمي سعودي يكرر معاني هذه الكلمات، وبألفاظ عربية منمقة لم يستطع هذا الأمريكي التعبير بها. فهل هذا تطابق فقط؟ أم تشابه أو توافق في مواقف معينة محسوبة بدقة لدى الطرفين؟ أو تقاسم وظيفي في التعبير وترجمته إلى اللغة العربية رسميا وتجهيز وسائل الاعلام التابعة وكتبة المارينز العرب لها في التطبيل والترويج لمعانيها وشرحها وتفسيرها وتبيان ما تحت الأسطر فيها وما خفي منها وما لم يظهر علنا اكثر مما هو في معاني مفرداتها، سواء العربية أو اصلها الأمريكي؟

ماذا أورد المصدر الرسمي في بيانه وما افترق فيه عن طلبات ذلك المسؤول الأمريكي ومطالبه؟ في القراءة للنصين يفهم المرء صفات التناغم المشترك ويدرك أن العملية متناسقة بين الطرفين وليس بينها تناقض، إذ هناك أسباب مشتركة خفية تجمع الطرفين الآن وما بعده، خاصة ما يتعلق بحزب الله بالذات ومكانته الجديدة شعبيا. فقد أدان المصدر عمليات المقاومة اللبنانية واعتبرها غير مسؤولة، وحملها المسؤولية الكاملة عن تصرفاتها ونتائجها التي كان يعرفها قبل حصولها بحكم التنسيق والتخطيط المشترك الذي أوضحه النص والتناغم المتبادل والسرعة في التنصل من التزاماته وتحيّن الفرصة في إلقاء التبعية على غيرها. حيث لا يمكن أن يفهم الأمر بغير هذه الصورة الكارثية، ليس من/على دوافع المصدر الرسمي ومن وراء بيانه بل ما يستهدفه وما يدعيه ويحاول التستر عليه، أو ما بين السطور!

إذ نقلت وكالة الأنباء السعودية (واس) عن مصدر مسؤول قوله إن «السعودية كانت ولا تزال تؤمن بحق الشعوب الواقعة تحت الاحتلال في مقاومة هذا الاحتلال بجميع أشكاله ورفض إجراءاته غير الشرعية الرامية إلى طمس الهوية وتغيير الوقائع على الأرض.

ومن هذا المنطلق، كانت المملكة تقف دوماً وبكل إمكاناتها مع المقاومة الفلسطينية المشروعة التي تستهدف مقاومة الاحتلال العسكري وتجنب إيذاء الأبرياء». وتابع «ومن المنطلق نفسه، وقفت المملكة بحزم مع المقاومة في لبنان حتى انتهى الاحتلال الإسرائيلي للجنوب اللبناني ... والمملكة إذ تستعرض بقلق بالغ الأحداث المؤلمة الدامية التي تدور الآن في فلسطين ولبنان، تود أن تعلن بوضوح أنه لا بد من التفرقة بين المقاومة الشرعية وبين المغامرات غير المحسوبة التي تقوم بها عناصر داخل الدولة ومن وراءها دون رجوع إلى السلطة الشرعية في دولتها ودون تشاور أو تنسيق مع الدول العربية، فتوجد بذلك وضعاً بالغ الخطورة يعرّض جميع الدول العربية ومنجزاتها للدمار دون أن يكون لهذه الدول أي رأي أو قول». وختم المصدر «إن المملكة ترى أن الوقت قد حان لأن تتحمل هذه العناصر وحدها المسؤولية الكاملة عن هذه التصرفات غير المسؤولة وأن يقع عليها وحدها عبء إنهاء الأزمة التي أوجدتها». واس 2006/7/13.

تناغم أيضا مع بيان المصدر السعودي بيان آخر صدر بعده عن قمة الرئيس المصري والملك الأردني بنفس الكلمات وبزيادة ونقصان في اختلاف السطور والفقرات، كاشفين بذلك محورا جديدا على الساحة العربية يقدم مسؤولوه ترجمات لما تريده منهم حليفتهم الكبرى وقاعدتها الاستراتيجية في المنطقة، فاضحين أو مؤكدين طبيعة محورهم وأهدافه.

ماذا يعبر مثل هذا الموقف بعد أيام مما حصل ويحدث بلبنان الآن؟ ولماذا هذه الحملة المنظمة والموجهة من أعلى المستويات العربية ومن أركان النظام العربي الرسمي التقليدي؟ وهل يحرك هذا تغيرا في واقع انهيار القيم والمفاهيم الأخلاقية والسياسية والقانونية في النظام العربي الرسمي؟

بعيدا عن مناقشة تفصيلية لتناقضات وخداع النصوص، والدجل المكشوف الذي لا يغفله أي مطلع عربي أو أجنبي، فان النصوص السابقة الذكر تحاول أن تذكر بمسؤوليات العرب أمام قضاياهم المركزية، وبما يتطلب تحمله منها، وكذلك بمن يدعي قيامه بها، ويتناقض هنا معها لأنها تتعارض مع طبيعته وحقيقته التي بذل كل جهوده لإخفائها ولكن النصوص المعنية عبرت عنها. فالذي يدافع عن الحقوق المشروعة والمقاومة المشروعة لا يتخذ قرارات مثل هذه في هذه الظروف الأكثر من عصيبة، ويترك شعبين عاريين من أي غطاء عربي ومتعرضين لأشرس عدوان عسكري وحشي ومخطط ومنظم ومدعوم بكل ما يحتاجه على مختلف الصعد. والذي يتحدث عن الاحتلال ومقاومته لا يوجه جهوده إلى إذكاء روح الفتنة بين صفوف الشعب المقاوم ولا يسعى إليها أو يخطط بمعونة من يريدها وينتظرها. والذي تبدى عليه الحرص غير المفهوم على حياة اسرى صهاينة لم يظهر سابقا عليه مثل هذا الحرص او ادنى لاكثر من ربع قرن من الزمن على اسرى عرب في سجون العدو، وحتى في غوانتانامو. إن التهرب من المسؤولية هو المغامرة غير المحسوبة أو بالأحرى المحسوبة بدقة للتنصل من الالتزام ورد العدوان والاحتلال. وان التجرؤ على إصدار مثل هذه البيانات لا يعكس غير ذلك، لا حكمة ولا التزاما ولا شعورا بالمسؤولية والتضامن والعمل القومي والإنساني. وليس لها أي علاقة بتوازن القوى ولا بمنطق حماية القانون والنظام الرسمي والمشروعية، فالجميع يعرف مصادر شرعيتها أولا ومن ثم خطورتها تاريخيا على الشرعية القانونية والثورية فعلا. فما يتعرض له الشعبان الفلسطيني واللبناني الآن من تدمير منظم وقتل جماعي وإبادة بشرية تتحملها تلك المصادر المسؤولة في النظام الرسمي العربي وهي إذ أعلنت بها موتها وموت نظامها قدمت خدمة كبيرة لأعداء الأمة ومصالحها ولان الأعداء يستغلونها بشكل كبير فانهم لا يألون جهدا في الاستمرار في مشاريعهم التي لم تعد مخفية في تغير خارطة المنطقة وتحقيق خيالاتهم بشرق أوسط كبير تابع لسياساتهم وخاضع لإمبراطوريتهم الصهيو أمريكية، ولا ينفع هؤلاء الراكضين وراء سراب التعاون المصيري مع الأعداء يومها مصيرهم الأسود.

لقد استفاد العدو الصهيوني من رفع الغطاء العربي عن المقاومة الفلسطينية واللبنانية وكذلك استثمرته إدارة بوش الصهيونية بأوسع ما تستطيع أن تستخدمه، ولذلك فان الهجمة العدوانية التي يقومان بها تتجاوز «المغامرة غير المحسوبة» إلى الأهداف المتفق عليها بين كل الأطراف الصهيونية، الأجنبية والعربية. وهذه وحدها تلقي مسؤولية تاريخية وأخلاقية على النظام المنتهي وعلى أركانه. وليس على صعيد العمليات العسكرية وحسب، حتى على صعيد الخطب والمقالات والتصريحات لأعوان المصدر وموظفي مكتب الأزمات في السفارة الأمريكية ببيروت، كما أعلن رسميا بكلمة المندوب الصهيوني أمام مجلس الأمن، وما يقوم به المندوب الأمريكي، عضو الوفد الصهيوني من عرقلات محسوبة ومنظمة مع الأطراف الدافعة والممتنة له. وفي كل هذه الصور الصارخة دلالات معبرة عن طبيعة المصادر المسؤولة في الأزمات المشتدة وفي الحروب المستعرة على العالم العربي والإسلامي، على الأرض أو في المؤتمرات والاجتماعات العامة، على مستوى القمم أو الوزراء أو حتى على مستوى العملاء.

إن مقاومة الشعوب العربية والإسلامية التي تواجه أشرس حملات العدوان والحرب المفتوحة عليها لن ترضخ لتهديدات مصدر مسؤول أو بيانات قمة محمية من قبل الأعداء قبل غيرهم، وهي تعتبر هذه البيانات نداءات استغاثة معلومة من مناصري العدو أولا ومن العدو مسبقا، وان اعتمادها في مسيرتها وكفاحها لم يكن على أصحاب هذه البيانات في يوم من الأيام، وان إيمانها بالنصر سيضع هؤلاء ومن يواليهم أو يتناغم معهم في متغيرات مسارات اللعبة الجديدة، وتضع الذين فرضوا عليها بقوة الحراب في مكانهم الطبيعي بمثلها حتما.

* كاتب من العراق
k_almousawi@hotmail.com

الى الجنرال ميشال عون زعيم التيار الوطني الحر في لبنان الغالي والمحروس باذن الله

ليث الشبيلات

■ بمزيد من الاعتزاز والاكبار والاعجاب نتابع هنا في الأردن منذ عودتكم الى لبنان الحبيب (نون الجماعة لا تشمل الموقف الرسمي وتشمل جميع من سواها) مواقفكم التي مهما حدث خلاف حولها فان ما لا يختلف عليه في شأنها كونها نابعة من اخلاص كامل للبنان وخدمة لبنان كما يراها التيار الوطني الحر وليس لأية جهة خارج لبنان. ومع الأيام أصبح المواطن العربي الذي اعتاد على تسميات وهمية لا علاقة لها بالمضامين يرى بأن هنالك تياراً منظماً في قطر عربي حبيب يحترم اسمه وتؤكد مواقفه صدق ذلك الاسم الذي يحمله، فمواقفه حرة ليست لحساب أحد سوى الوطن.

ان اجاباتك الصادقة المفعمة بالمنطق في مقابلة «الجزيرة» سلطت الضوء على أصحاب العورات المكشوفة دون الحاجة الى أن تتطرق لأحد منهم بالاسم. فلا أحد يستطيع أن يزايد عليكم في موضوعة السيادة وقد عريت مدعي حب السيادة بسخريتك من غيرة اسرائيل على السيادة اللبنانية ومن انجرار الخونة الى هذا المشروع. وكم كنت سهلاً ممتنعاً عندما عيرت العربان الذين كانوا يمجدون بطولة حزب الله ممن كانت علاقاتهم أقرب اليه منكم بانقلابهم في لحظات محملين حزب الله المسؤولية مسلمين لبنان للوحوش باعطائهم الضوء الأخضر للصهاينة والأمريكيين لابادة منجزات الشعب اللبناني وأبنائه!

وصدقت أيها العسكري والسياسي معاً عندما سخرت من مقولة من يملك قرار السلم والحرب مبيناً بحق بأن ذلك القرار ليس لأحد الا للعدو حسب موازين القوى!

ان بطولات المقاومة اللبنانية العظيمة المدعومة بالتفافكم الصادق حولها خدمة للبنان وليس استخذاء لأحد لا يحتاجان حتى تكتمل الوحدة الوطنية الا الى توبة من قوى 14 آذار (مارس) التي وضعت ثقتها الكاملة في الولايات المتحدة وأهدت الصهيوني بولتون وساماً لبنانياً رفيعاً (بدلاً من حذاء يتوج به رأسه اذ رد على التكريم اللبناني باصراره على تدمير لبنان) بعد أن انكشفت «غيرة» الولايات المتحدة على لبنان واللبنانيين الى الدرجة التي باتت تشتهي فيه اراقة دم كل لبناني قرباناً لاسرائيل. واختصاراً لمعاناة اللبنانيين فان الأمر لا يحتاج الا الى اعلان من الحريري بأنه وأصدقاءه من أثرياء لبنان والسعودية ملتزمون بالتبرع لاعمار لبنان مهما دمرته الآلة العسكرية الصهيونية تحت شعار (أنتم قاوموا ونحن سنبني ما يهدمه الأعداء) عندها وعندها فقط يدرك الأعداء بأن أهدافهم قد هزمت بالكامل لأن رهانهم على النصر ليس رهاناً عسكرياً وانما يراهنون على أن قوى 14 آذار (مارس) ستضغط لتنفيذ المطالب الصهيونية.

وليضف الى ذلك أيضاً أنه باسم اللبنانيين (وباسم الفلسطينيين أيضا) يطالب أصدقاءه الذين تخلوا عن لبنان وفلسطين بحقوق اللبنانيين في جزء من فرق سعر البترول الذي تسببت به الحرب المفتوحة والذي يدخل جيوب المسيطرين على بترول الأمة مجبولاً بدماء اللبنانيين والفلسطينيين. لقد بلغ كرم المملكة العربية السعودية مبلغه اذ تبرعت بربع دخل فرق سعر يوم واحد من البترول وليس بربع الدخل اليومي كله ناهيك عن الدخل اليومي الكامل.

اذا أدرك الحريري ذلك وأدرك أن أمريكا قد أسقطت آخر ورقة توت عن عورة 14 آذار (مارس) وأنها قلبت التعاطف مع استشهاد والده الى قرف فضائحي اذ أنها تتصرف كأن دم الحريري عندها مقدس فتحرك القرارات الدولية له في الوقت الذي تعتبر فيه أن دماء المواطنين اللبنانيين جميعاً نجسة تستعمل الفيتو من أجل منع حمايتهم. اذا أدرك ذلك ثم أعلن موقفاً صلباً دون غنج (سنتحاسب فيما بعد) يتوقف العدوان ويخرج لبنان موحداً مباركاً فيه لجميع أبنائه وكم كنت وطنياً حراً عملاقاً عندما ختمت مقابلتك بقولك: ان الأبطال لا يحاسبون، عندما يخطئون فانهم يستشهدون ولا يحاسبون. على الحريري ان كان عنده بتع أن يسارع الى انقاذ سمعة والده من الصورة الكريهة التي تصوره فيها الولايات المتحدة وهي ترفع شعار (يعيش جثمان الحريري وتسقط حياة كل اللبنانيين) فكلما زادت الولايات المتحدة من تأييدها لتدمير لبنان كلما استبدلت اللعنات بدلاً من الرحمات التي يستحقها المرحوم الشهيد الذي فجعنا جميعاً بجريمة اغتياله ونقر كلنا بشهادته رحمه الله ولكننا لا نقر بموقف أمريكا من جعله الشهيد الأوحد في لبنان والمنطقة (بالاضافة الى «الشهداء» الاسرائيليين طبعاً). فزعماؤنا اما الزعيم الأوحد في حياته أو الشهيد الأوحد في مماته على ما يبدو.

وفي الختام أيها الأخ الجنرال يقول نبينا عليه الصلاة والسلام (ان مما جاءنا من كلام النبوة الأولى أنه اذا لم تستح فافعل ما شئت) هذا فيما يخص 14 آذار (مارس) وحماة المقدسات وورثة الأنبياء وبياناتهم التي لا تحتاج الا لترويسة نجمة داود. أما فيما يخص لبنان الحبيب فيقول العارف بالله الشيخ ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في حكمه (ربما أعطاك فحرمك وربما حرمك فأعطاك). ان كل الحرمان الذي ينزل بلبنان والذي سيسأل عنه المجرمون لاحقاً قد أبدله الرحمن عطاء وهبة. كلنا نتمنى أن نكون لبنانيين لنتشرف بانشاد النشيد الوطني «كلنا للوطن للعلا للعلم» معكم.

أرجو أن تقبلوا مني آيات الأخوة الصادقة والصداقة الأمينة التي لا تخون أوطانها ولا أصدقاءها الوطنيين الأحرار بالتفافكم الصادق حولها خدمة للبنان وليس استخذاء لأحد لا يحتاجان حتى تكتمل الوحدة الوطنية الا الى توبة من قوى 14 آذار (مارس) التي وضعت ثقتها الكاملة في الولايات المتحدة وأهدت الصهيوني بولتون وساماً لبنانياً رفيعاً (بدلاً من حذاء يتوج به رأسه اذ رد على التكريم اللبناني باصراره على تدمير لبنان) بعد أن انكشفت «غيرة» الولايات المتحدة على لبنان واللبنانيين الى الدرجة التي باتت تشتهي فيه اراقة دم كل لبناني قرباناً لاسرائيل. واختصاراً لمعاناة اللبنانيين فان الأمر لا يحتاج الا الى اعلان من الحريري بأنه وأصدقاءه من أثرياء لبنان والسعودية ملتزمون بالتبرع لاعمار لبنان مهما دمرته الآلة العسكرية الصهيونية تحت شعار (أنتم قاومو